

ولقد شغل البحث عن أصل اللغة ونشأتها اذهان الكثيرين من العلماء والكتاب، ويبدو أن المشكلة ترجع الى العصور الأولى للفكر الانساني حيث نجد عددا كبيرا من الأساطير القديمة تدور كلها حول أصل اللغة وتحاول أن ترد اللغة الى مصدر فائق للطبيعة أو غيبي اعجازي، وان الانسان تعلم اللغة على أيدي معلم الهي. وكان المظنون دائما أن حل مشكلة أصل اللغة سوف يؤدي الى حل كل الإشكالات الخاصة بها، ونرجع الاهتمام بدراسة أصل اللغة ونشأتها الى علماء القرن التاسع عشر الذين كان يغلب عليهم الاتجاه التاريخي والتطوري في مختلف مجالات البحث والمعرفة بقصد التعرف على الأصول الأولى للأشياء، مثلها بحث دارون عن الأصل الأول للأنواع في كتابه العظيم المشهور. وكان السائد حينئذ أن التاريخ هو المفتاح الوحيد للدراسة العلمية للغة والكلام الإنساني، ولذا نجد معظم الإنجازات الكبرى في اللغة تأتي من جانب علماء لهم اهتمامات تاريخية لدرجة كانت تمنعهم من الاهتمام بأي اتجاه فكري اخر، وان كان هرمان بول (Hermann Paul) آثار الاعتراض بان البحث التاريخي وحده لا يمكن أن يحل كل مشكلات اللغة الإنسانية وان المعرفة التاريخية تحتاج إلى أن تستكمل دائما بدراسة اللغة في نواتها كنسق متكامل، فلكل فرع من فروع المعرفة التاريخية، على ما يقول كاسير، يوجد جانب يعالج الظروف العامة التي تطورت تحتها الاحداث التاريخية وتبحث في العوامل التي تظل قائمة ومستمرة ولا تخضع للتغير او على الأقل تقاوم التغير في كل نواحي الظواهر الإنسانية. يضاف الى ذلك الى ان علماء ذلك القرن كانوا يهتمون بالتفسيرات السيكلوجية الى جانب التأويل التاريخي. وواضح ان هذين النوعين من التأويلات كثيرا ما يسيئان الى الدراسة البنائية المنهجية لأي لغة من اللغات اذ لا بد من ان تأتي الدراسة البنائية موضوعية الى حد كبير وغير متأثرة بأي أفكار سابقة حتى يمكن استعمالها بطريقة مجدية عند عقد المقارنات¹.

¹ Cassirer op. cit. pp 154-55

ولقد اختلفت الآراء حول أصل اللغة اختلافا كبيرا على ما ذكرنا، وثمة نظريات كثيرة في ذلك لا داعي للدخول في تفاصيلها، وأن كان الاجدر الاشارة الى نظرتين أساسيتين بالإضافة الى الراي الذي يرد اللغة الى أصل الهي او ميتافيزيقي^٢. واولى هاتين النظريتين ترى ان الكلمات ظهرت في الأصل نتيجة مباشرة الأصوات والصيحات

^٢ مع ان النظرية الدينية لم تعد تجد قبولا عند اغلب العلماء فلا يزال الكثير من الشعوب التي توصف عادة بانها شعوب بدائية تعتقد بأن اللغة جاءت من اصل الهي مقدس، ولم يكن هذا الرأي شائعا في المجتمعات القديمة، وانما نجده في بعض المجتمعات الاوربية ايضا، ففي القرن السابع عشر كان بعض العلماء السويديين يعتقدون ان الله يتكلم السويدية في جنات عدن بينما يتكلم ادم اللغة الدنماركية وكانت الافعى تنطق بالفرنسية، وفي احد المؤتمرات الذي عقد عام ١٩٣٤ دار نقاش حول اصل اللغة فأثار العلماء الاتراك مشكلة ان اللغة التركية هي اصل جميع اللغات وان كل الكلمات اشتقت أصلا من الكلمة التركية التي تعني (الشمس) باعتبار ان الشمس او شيء يثير الانسان، ومن ناحيه أخرى نجد ان عالما مثل داروين يقدم لنا تفسيراً ليا للغة، فيرى ان الكلام في اصله ليس سوى تمثيل بالفم ، حاولت الاعضاء الصوتية فيه ان تقلد حركات واشارات الايدي. وثمة نظريات اخرى لا تقل عن ذلك غرابة وطرافة وابتعادا في الوقت ذاته عن العلم الدقيق الصحيح مثل القول ثمة علاقة خفية بين الصوت والمعنى، وكل هذه النظريات شبه العلمية نجدها عند الفلاسفة الاغريق مثل فيثاغورس وافلاطون والرواقيين الذين ذهبوا الى ان اللغة نشأة تلبية الى بعض الحاجات الطبيعية الكامنة أي من الطبيعة ذاتها، بينما يذهب ارسطو ديموقراطيس والابوقوريين الى انها نشأت عن طريق الاتفاق والتراضي دون ان يذكروا كيف امكن الوصول الى ذلك الاتفاق، وان لم يكن وسيلة سابقة للتفاهم، ومن الطريف ان نجد العالم اللغوي شتورتيغانيت Sturtevant يذهب الى القول بانه لما كانت النوايا والعواطف والانفعالات الحقيقية الصادقة تكشف عن نفسها وتقضح صاحبها بطريقة لا ارادية في الحركات والنظرات والاصوات كان لابد من ان يخترع الانسان بعض وسائل الاتصال الارادية التي يستخدمها ليداري بها انفعالاته، أي ان اللغة نشأت نتيجة للرغبة في خداع الآخرين والتمويه عليهم واخفاء النوايا الحقيقية . انظر:

والصرخات التي تصدر عن الفرد للتعبير عن بعض المشاعر والوجدانيات والانفعالات، ثم لم تلبث هذه الأصوات ان اتخذت بعد ذلك معانى محددة وأصبحت تقوم بوظيفة الاتصال وليس مجرد التعبير عن الانفعالات، ولكن هذه النظرية التي كانت تلاقي الكثير من القبول لا تحل المشكلة في الحقيقة؛ لأن ثمة هوة سحيقة تفصل بين الصراخ والصيحات المعبرة من الأفعال والكلمة ذات المدلول المحدد والمعنى الدقيق، بحيث يمكن القول مع كاسيرر ان هذا الصوت الانفعالي العاطفي هو في حقيقة الامر انكار للغة، لأننا لا نلجأ الى تلك الأصوات الا حين يكون المرء عاجزا عن الكلام أو حين يكون راغبا بالكلام. والمشكلة تنحصر إذا في الوصول الى تفسير معقول للانتقال من مجرد الصراخ الى الكلام. وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن هذا الانتقال حدث تدريجيا وببطء شديد نتيجة لنجاح الإنسان في التمييز بين الأشياء ومعرفتها من طريق ادراكه الواعي وليس عن طريق المشاعر والانفعالات، أي أنه بدا يدرك وجودها في الخارج دون ان يكتفي بمجرد الاحساس بذلك الوجود. وأما النظرية الثانية فتزى أن الأصوات وبالتالي الكلمات لست الا محاكاة للأشياء الموجودة في الطبيعة، أو بقول ادق فان اللغة ظهرت نتيجة لتقليد اصوات الطبيعة ومحاكاتها³، وعلى أي حال فأن هاتين النظريتين لا تقدمان تفسيراً شافياً للصور اللغوية الحقيقية، لأنه لا الصياح اللاإرادي ولا محاكات الأصوات يمكن اعتباره صورة أو صيغة لغوية، وان كان الصياح يؤلف بغير شك جزءاً من استجابات الإنسان المؤثرات أو المنبهات القوية، كما انه يختلف، حتى عن كتابة هذا الصوت. فكلمة (اه) ترمز الى استجابات الالم والدهشة والتعجب حسب طريقة النطق بها، وهذا الرمز -مثل كل الكلمات -مسألة تعسفية تحكمية وتقوم على الاتفاق، كما أن معناها يجب ان يتعلمه المتكلمون بعكس حال الصوت نفسه أو الصيحة اللاإرادية التي لا يتعلمها الفرد. فالطفل يصرخ قبل ان يتكلم

³ Cassirer op. cit. p 152

اللغة بفترة طويلة. كذلك الكلمات التي تقلد الأصوات يجب ألا نخلطها بالمحاولات التي بذلت لصنع اصوات تميز البيئة التي يعيش فيها الانسان⁴.

⁴ Hojer, In Shapiro, op. cit., p. 200